(٥٦)

"سقوط الشجرة"

استيقظ من نومه فزعًا على صوتٍ عالٍ ناتجٍ عن ارتطامٍ شديدٍ بالأرض، فهبَّ منتفضًا من فراشه، ونظر من شرفة غرفته ليتبين أن ما سقط على الأرض كان الشجرة العالية التى تلقى بظلالها وأغصانها على شرفة منزله.

لم يصدق ما رآه من هول صدمته، وأخذ يحملق فيها وهى ملقاة على الأرض بلا حراك، ودون أن يشعر لحقت دمعاته بالشجرة لتسقط هى الأخرى على الأرض دون سابق إنذار.

تأمل الشجرة من شرفته وأمعن النظر فى أوراقها الذابلة بعدما كانت تتميز دون سواها من الشجر بأغصانها المورقة وثمارها المبهجة. وفى تأمله لها شعر أنه يتأمل حياة عائلته الكبيرة التى كانت فيما مضى صاخبة وضاحكة، ثم أضحت بمرور السنوات كالشجرة جثة هامدة.

ومثل أغصان الشجرة التى لم تنجُ من السقوط منفصلة عن جسمها، كان أفراد عائلته أيضًا قد هووا جميعًا واحدًا تلو الآخر بعدما فشلوا فى إمكانية عيشهم بمعزلٍ عن بنيان الشجرة الأم. وكما كان لابد بعد سقوط الشجرة الضخمة من عدم بقائها ملقاة على الأرض لتشغل حيزًا كبيرًا منها بلا أية فائدة تُذكَر، كان لا مناص من قدوم من مزقوها وقطعوا أجزاءها فاصلين ما بقى من أغصانها عنها، وباترين لساقها وجذعها أمام كل الناظرين.

واختفت الشجرة من أمام أعين الناس لفترة طويلة، ومع ذلك مثلما كان منهم من محاها من ذاكرته وأخرجها من دائرة حساباته، كان منهم أيضًا من كان يتذكرها بين حينٍ وآخر متحسرًا على فقدانها. وكان هناك كذلك من كان ينتظر بفارغ الصبر أن تكون جذورها المتأصلة فى الأرض على موعدٍ آخر مع الحياة فتتشبث بها من جديد، ويهب ساقها فوق الأرض واقفًا بشموخ ومنتفضًا بحماس بحثًا عن ضوء الشمس، فتتفتح أوراق أغصانها الشابة، وتورق ثمارها الفتية النضرة مع إشراقة صباح يومٍ سعيد. وكان هو من هؤلاء الذين لم يفقدوا الأمل فى رؤية الشجرة مورقة من جديد.